

لمؤدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للاستاذ محمد سعيد العريان

- ٣٣ -

« سقط من المقالة الثانية والثلاثين المنشورة بالعدد الماضي من الرسالة ، بعض عبارات خفي فيها بسنن للفتى ؛ كما وقع بها بضعة أغلاط مطبعية ابتدئت بها قليلاً من التهج ؛ فننتظر من هنا وذلك إلى قرائنا ، راجين ألا نلزمنا الضرورة مرة أخرى أن نمود إلى مثل هذا الاعتذار »

سعيد العريان

مقالات للرسالة (٤)

كان فيما تحدث به صديقنا المهندس الأديب محمد ؟ إلى الرافعي من أسباب هزوبته أن الزواج عنده حظ نجوه ، فإنه يخشى أن يجعل نفسه على ما لا يتحمل من المنة والشقة في سبيل إعداد ما يلزم للزواج ، ثم تكون آخرة ذلك أن يجولوا عليه فتاة دميعة لا يجد في نفسه طاقة على معايشتها ما بقي من حياته ، أو فتاة فاسدة التريبة لا يدخل بها على زوجته ولكن على معركة ...

وقد ظل هذا القول طافاً بذهن الرافعي يلتمس الوسيلة إلى تنفيذها والرد عليه ، حتى وقع على قصة احمد بن أيعن (كاتب ابن طولون) ، فأنشأ مقالة « قبح تجليل » ، وهي القصة الثانية مما أنشأ الرافعي لقراء الرسالة ؛ وهي الحلقة الخامسة من سلسلة مقالاته في الزواج ، وفيها توجيه معتبر للحديث الشريف : « سواد ولود خير من حسانه لا تلد » يسلك هذه المقالة في باب « الأدب الهين » التي أشرت إليه في بعض ما سبق من الحديث .

ثم كانت الحلقة السادسة هي قصة « رؤيا في السماء » ، وتتصل بما سبق من المقالات بأسباب ، على أنها تتحدث عن الزواج بمناه الأسمى ، وتدعو إليه الدعوة الانسانية التي تعتبر الزواج باباً من الجهاد لسعادة البشرية كلها ...

في هذه المقالة ؛ لا أعرف سبباً خاصاً من مثل ما قدمت دعاه إلى إنشائها ، ولكنها جملة الرأي وخلاصة الفكر وأثر اشتغال الراحبة الباطنة قرابة شهرين بموضوع الزواج ؛ فهي من الموضوع كالمهشم والتعليق ، أو الحكم بمداد المداد ، أو هي الصفة الصريحة بمد ما يذهب الزبد وتنطق الرغوة ...

وقد ترجم هذه القصة إلى الفرنسية الأديب الباحث الأستاذ فليكس فارس ؛ وكانت هي أول الصلة بينه وبين المرحوم الرافعي ثم اتصل بينهما الود .

لما أنشأ الرافعي « قصة زواج » تحدث بها الأديب في مجالسهم وتضاعفت رسائلهم إليه معجبين مستزدين ؛ وتضاعف إعجاب هو أيضاً بنفسه .. فاستزاد واستعاد ، والنزم الكتابة على أسلوب القصة ، فكان على هذا التهج أكثر رسائله من بمد

وجلست إليه ذات مساء تتحدث حديثنا ، فقال وهو يدفع إلى طائفة من رسائل القراء : « اقرأ يا شيخ سعيد ... أ رأيت مثل هذا ؟ أيجوز لأحد أن يزعم لنفسه القدرة على خير مما أكتب في موضوعه ؟ أيعلمك كاتب أن يرد على رأيا من الرأي ؟ ... » ومضى في طرائق من مثل هذا القول عن نفسه وعن طائفة من خصومه ؛ فمرفت أنه في لحظة من تلك اللحظات التي تنبه فيها النفس البشرية إلى طبيعتها ، فتؤمن بنفسها من دون كل شيء مما خلق الله ، إيماناً هو بعض الضمف الانساني في طبيعتنا البشرية وهو بعض أسباب القوة في النابئين من أهل الآداب والفنون ؛ ذلك الايمان الذي نسميه أحياناً صلفاً وعنجهية وكبرياء ؛ ونسميه في النابئين والمعلماء ثقة بالنفس وشموراً بالقوة ؛

وكان يلدني في أحيان كثيرة أن أشهد الرافعي في مثل هذه الساعة من ساعات الزهو والاعجاب بالنفس ، وأجد في ذلك متاعاً لنفسي وغذاء لروحي ؛ لأن الرافعي بما كان فيه من طبيعة الرضا والاستسلام للواقع كان دقيقاً متواضعاً ؛ فلا تشهد في مثل هذه الحال إلا نادرة بعد نادرة ؛ فإذا شهدته كذلك مرة فقد شهدت لوناً طريفاً من ألوانه ، يوحى إلى النفس بفيض من المعاني وكأنما هو يمدى سامعه من حالته ، فيحس في نفسه قوة فوق قوة ، وكأن شخصاً جديداً حل فيه ...

كان هذا الزبال صديق الراجي ، بينهما من علائق الود وصفاء المحبة ما بين الصديقين ؛ وكان الراجي يسميه « أرسطو الجديد » . وأول هذه الصلة التي بينهما أن الراجي كان يلذه أحياناً أن يجلس على كرسى في الشارع أمام مكتب أخيه ، حيث اتخذ الزبال « عمله المختار » فكان يوافق في مجلسه ذلك على ما قدمت من وصفه ، فيرفع يده إلى رأسه بالتحية وهو يتنسم ، ثم يجلس ؛ فكان يحادثه أحياناً في بعض شؤونه يلتبس ببعض أنواع المعرفة ... ويكرمه ويبره . وأنس إليه الزبال ، فكان يسأل عنه إذا غاب ، وينهض لحنجته إذا حضر ؛ وصار من بعض عادات الراجي من بعد ، أن يسأل عن الزبال حين يغيب ، وأن يشتري له كلما لقيه دخائن بنصف قرش ، مبالغة في إكرامه ...

وكان الرجل أمياً ولكن الراجي كان يفهم عنه من حركات شفوية ، وأحياناً يستدعي بينهما من يترجم له حديث الزبال مكتوباً في ورقة ، وقد كنت الترجمان بينهما مرة . وكان الراجي يحرص على هذه الورقات بدمنهاية الحديث كما يحرص الباحث على مطالعة أفكار من غير طأله !

وما كان يدور بين الراجي وصديقه هذا من الحديث ، عرف الراجي طائفة من ألقاظ الائمة العامية كان يجملها ، وطائفة من الأمثال ونبيه ذلك من بعد إلى العناية بجمع أمثال العامة ، فاجتمع له منها بضع مئات بمصادرها ومواردها ، وأحسبها ما تزال محفوظة بين أوراقه . كما أفاد الراجي من صداقة هذا « الفيلسوف الطبيعي » سنان وأفكاراً جديدة في فلسفة الرضا لم تلهم بها طبيعته .

ولهذا الزبال صنع الراجي أكثر من أغنية ، أعرف منها الأغنية التي نشرها لقراء الرسالة في العدد ٧١ سنة ١٩٣٤ وأغنية أخرى دفعها إلى الآنسة ماري قدسي معلقة للموسيقى بوزارة المعارف لتضع لها لحنًا يناسبها .

وقد كان في نفس الراجي أن يكتب مقالة عن هذا الزبال يتحدث فيها عن فلسفته الطبيعية العملية ، وكان محتفلاً بهذه المقالة احتفالاً كبيراً ، حتى إنه تم بموضوعها أكثر من مرة ثم عداها إلى غيرها حتى تنضج ؛ وقد هيأ لها ورقة خاصة كان يجمع فيها كل ما يتبها له من الخواطر في موضوعها ليستعين به عند كتابتها ، ولكن الموت أجمله عن تمامها ، وأحسب أن هذه الورقة ما تزال بين ما خلف من الأوراق .

... وسرني أن أجد الراجي كذلك في تلك الليلة ، فأسميت إليه وهضي في حديثه ؛ فلما انفض المجلس ومضيت إلى داري ، وسوس إلى الشيطان أن أعابته بشيء ... فكنت إليه رسالة بامضاء (آنسة س) أرد عليه رأيه في قصة سعيد بن السيب وأعيب ما صنع الرجل بابنته ، وعمدت في كتابة هذه الرسالة إلى تقليد أسلوب من أسلوب الدكتور طه ، يعرفه قراء الرسالة ويعرفه الراجي ...

وبلثت الرسالة قراها ، فنهته إلى ما كان فيه من أمسه ؛ ووقع في نفسه أن مرسلها إليه هو تلميذ أو تلميذة من تلاميذ طه موسى إليه بما كتب فتحمس للرد ، وأنشأ « ذيل القصة وفلسفة الهر » وجعل أول مقاله رسالة (الآنسة س) وراح يسخر منها ومن صاحب رأسها سخرية لازمة ؛ ثم عاد إلى موضوع فلسفة الهر ... وقرأ الزيات المقالة فرأى فيها تمريراً بصاحبه لم يرض عنه ، فكتب إلى الراجي يطلب إليه أن يوافق على حذف مقدمة المقالة ، حرصاً على ما بين الرسالة وصاحبه من صلوات الود ... وكان له ما طلب ، فنشرت المقالة في موعدها خالية من هذا الجزء ولكنها لم تخل من إشارات مبهمة إلى أشياء غير واضحة الدلالة وكذلك نشرت من بعد في وحى القلم ...

ثم كانت قصة « بنت الباشا » وهي السابعة من مقالاته في الزواج ، وقد ألهمه موضوعها صديقه (الزبال الفيلسوف) الذي تحدث عنه في هامش هذه المقالة . وهذه المقالة فيما ترى إليه تعتبر متممة لموضوع « قصة زواج » فهي دعوة اجتماعية لأبناء الفتيات إلى الانطلاق من أسر التقاليد في شؤون الزواج ، وفيها إلى ذلك شيء من الحديث عن « فلسفة الرضا » التي أسلفت القول عنها في « حديث قطين »

أما هذا الزبال الذي نوه به الراجي في أكثر من مقالة ، فهو من عمال قسم النظافة في « بلدية طنطا » ، وكان عمله قريباً من دار الراجي في الشارعين اللذين يكتنفانها ، وكان إذا فرغ من عمله في الكنس والتنظيف اتخذ له مستراحاً على حيد الشارع تجاه مكتب الوجيه محمد سعيد الراجي (المقاول) ، فيقضي هناك أكثر أوقات فراغه ، غامماً أو محتبياً ينظر الراحمين والنادين من أهل الرء والنمة ، أو شادياً يصدق بأغانيه ؛ فإذا جاع بسط متديله على الأرض فيأكل مما فيه ، ثم يشعل دخينه ويود إلى حيوته يتأمل ..